ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:07، العدد:02 (2023)، ص264-281

دور الإثنوغرافيا العسكرية والاستشراق العلمي في المشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر:

"أوجين دوماس" و"أدريان بيربروجر" أنموذجين

The role of military ethnography and scientific Orientalism in the French colonial project in Algeria: Eugene Daumas and Berbrugger models

زهير بن علي
جامعة سطيف 02 (الجزائر)
z.benali@univ-setif2.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/10/13
تاريخ القبول:
2023/11/18

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الاستشراق الفرنسي
- ✓ الإثنوغرافيا الكولونيالية
- ✓ أوجين دوماس
- ✓ أدريان بيربروجر

الملخص:

تضافرت جهود العسكريين والمستشرقين الفرنسيين عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م لتوطيد ركائز الاستيطان وجذب المستوطنين الأوروبيين. وقد سخّرت الحكومة الفرنسية الإمكانيات والوسائل اللازمة لهذه الغاية؛ بما في ذلك توظيف الأبحاث والدراسات الإثنوغرافية والاستشراق العلمي، بهدف فهم خصوصيات المجتمع الجزائري (الاهلي)، وتزييف ماضي الجزائر الحضاري، والتأسيس لأطروحة كولونيالية تقوم على إحياء التاريخ الروماني القديم، واعتبار الاحتلال الفرنسي استمرارًا له. وقد أخترنا أنموذجين لدراستنا هذه؛ هما الجنرال **"أوجين دوماس"** وهو مستعرب وإثنوغرافي عسكري، وعالم الآثار والمستشرق **"أدريان بيربروجر"**، حاولنا من خلالها بيان أوجه التشابه والتلاقي بينهما في خدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر.

Article info

Received:
13/10/2023
Accepted:
18/11/2023

Key words:
- ✓ French Orientalism
- ✓ Ethnography
- ✓ Eugene Daumas
- ✓ Adrien Berbrugger

Abstract:

The efforts of the French army and the orientalists made it possible to consolidate the foundations of the colonization of Algeria by European settlers. Orientalist ethnographic studies contributed to erasing Algeria's cultural past and establishing a colonial thesis based on the revival of Roman history and considering the French occupation as a continuation. Two models were chosen for the study: General Eugene Daumas as an orientalist military ethnographer, and the archaeologist and orientalist Adrien Berbrugger. We sought to show the similarities and convergences between the military and the civilian in the service of the French colonization project in Algeria.

مقدمة

من العوامل التي ساهمت في نجاح الاستيطان الفرنسي بالجزائر؛ ذلك التعاون الذي قام بين الضبّاط العسكريين والمدنيين الفرنسيين من مستشرقين ورجال الدّين... وغيرهم، فإلى جانب المهام العسكرية التي تولاّها الضبّاط الفرنسيون؛ نجد أنّهم قاموا بدراسات إثنوغرافية حول المجتمع الجزائري، واستفادوا من الدراسات والأبحاث التي قدّمها المستشرقون الفرنسيون الذين رافقوا الحملة الفرنسية على مصر؛ ثم قدموا إلى الجزائر مع الاحتلال سنة 1830م، أو جاؤوا بعده بسنوات قليلة. هاته الأعمال التي كمّلت بعضها، وعكست حالة من التكامل بين مهام الضابط المُستعرب والعالم الفرنسي المستشرق في خدمة المشروع الاستيطاني، لا سيما وأنّها وجدت المساندة والدعم من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، حيث رافق المستشرقون الحملات العسكرية على الجزائر شرقًا وغربًا وجنوبًا، وحظوا بالحماية الأمنية اللازمة لأداء مهامهم، وبالمقابل وضع هؤلاء المستشرقين معارفهم وخبراتهم العلمية في خدمة الجيش الفرنسي الغازي، وسخّروا أنفسهم لتحقيق الهدف المنشود.

تبرز هذه الورقة طبيعة المهام التي أوكلت للمستشرقين الفرنسيين، والأدوار التي تولّوها بأنفسهم منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وتستعرض كذلك مجالات اهتمام الضبّاط العسكريين بالمجتمع والبيئة الجزائرية، وكيف ساهمت دراساتهم في فهم ذهنيات الجزائريين، والتغلغل داخل المناطق الجزائرية، وفهم خصوصيات المجتمعات المحلية، ومعرفة أحوال ساكنتها. كما تبحث دراستنا في أعمال الضبّاط العسكريين المهتمّين بالشأن 'الأهلي' في العقود الأولى من القرن 19م، والتي تجسّدت في دراساتهم الإثنوغرافية حول العادات والتقاليد والمجتمع والسّكان في الجزائر، وتتناول أيضا أبحاث المستشرقين الفرنسيين الذين وصلوا إلى الجزائر بعد الاحتلال، والذين ساهموا في استكشاف جغرافيتها، وقدّموا الاستشارة العلمية للجيش الفرنسي، وعملوا أيضًا في ميدان التّرجمة والدراسات العربية، واهتموا بالتراث المخطوط والآثار، وهي الأعمال التي سهّلت لقادة الجيش الفرنسي التواصل مع الأعيان وشيوخ القبائل، فكان بذلك المستشرق مثل الفانوس الذي يُضيء طريق الجندي لأداء مهمّته في الجزائر.

نهدف من خلال هذه المقاربة إلى بيان أوجه التشارك والتلاقي والتكامل بين هاذين الجانبين، وكيف ساهم هذا وذاك في خدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر؟ من خلال عقد مقارنة بين ما قدّمه أحد روّاد الإثنوغرافيا العسكرية الكولونيالية في الجزائر المُستعمرة الضابط "**أوجين دوماس** Eugène Daumas"، وواحد من أبرز المستشرقين الذين ساهموا في التأسيس للمشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر علميًا وسياسيًا؛ المستشرق وعالم الآثار "أدريان بيربروجر **Adrien Berbrugger**".

سنعتمد المنهج التاريخي الوصفي لسرد السيرة الذاتية لكلّ من أوجين دوماس و'أدريان بيربروجر'، والتعريف بأعمالهما ودراساتهما الإثنوغرافية والاستشراقية في الجزائر، ثمّ تحليل بعض مضامين كتاباتهما ذات الصلة بموضوع مقالنا، لنعقد مقارنة تاريخية بين مسارهما؛ منجزاتهما، لنصل إلى نتائج هذا التكامل بين الإثنوغرافيا الكولونيالية العسكرية والاستشراق العلمي خلال فترة الحكم العسكري الفرنسي بالجزائر (1830-1870)، وهي

الفترة التي نشط فيها كل من **'أوجين دوماس' و'أدريان بيربروجر'** بالجزائر.

1. الإثنوغرافيا العسكرية والاستيطان الفرنسي بالجزائر

نقصد بالإثنوغرافيا العسكرية الكولونيالية تلك الأعمال والدراسات التي قام بها الضبّاط الفرنسيون حول المجتمع الجزائري بعد احتلال الجزائر، وهم الذين زاوجو بين مهامهم العسكرية واهتمامهم بدراسة المجتمع المحلّي (الأهلي) وفهم خصوصياته. وكلمة إثنوغرافيا: تعني الدراسة الوصفية لطريقة وأسلوب حياة شعب من الشعوب، واصطلاح الاثنوغرافيا (Ethnography) في بريطانيا يعني البحوث الوصفية والتحليلية التي قام بها علماء الانثروبولوجيا البريطانيون حول الشعوب والأقوام البدائية التي درسوها دراسة ميدانية، بينما لا ترتبط الإثنوغرافيا بالأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يعرّفها العالم **'هيرز كوفنتر'**: "**بأنها وصف للحضارات، وبحث المشاكل النظرية المتعلّقة بتحليل العادات البشرية للمجتمعات الإنسانية المتباينة**" (بوطقوقة).

1.1. لمحة عن الإثنوغرافيا العسكرية الكولونيالية في جزائر القرن 19م

تُصنّف مؤلّفات الضبّاط الفرنسيون حول المجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر ضمن كتب **'الانطباعات'**، وهي الكتابات التي تناولت مختلف جوانب الحياة الجزائرية؛ من عادات وتقاليد وأخلاق، واهتمّت بوصف حالة الفرد الجزائري ونمط معيشته وملابسه، وطقوس الأسرة الجزائرية الاحتفالية في المناسبات الدينية والاجتماعية، وركّزت أيضا على أوجه التشابه والاختلاف بين عادات أهل المدينة وسكّان الأرياف، وكذا بين مختلف مناطق الجزائر شمالاً وجنوبًا.

كما استغلّ هؤلاء الضبّاط وظيفتهم العسكرية التي أتاحت لهم قيادة عمليات الغزو والتوسّع عبر ربوع القطر الجزائري؛ في جمع المخطوطات النادرة، والقطع الآثارية والتحف الفنية، وتدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم، كل هذا قصد التعرّف على المجتمع الجزائري عن قرب. ومنهم من شرع في تعلّم اللغة والعربية واللهجات المحلية الدارجة مبكّرًا؛ بهدف التواصل مع الأعيان والوجهاء وشيوخ القبائل؛ وتسهيل عمليات بسط السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ العسكري والاستيطان، وتسخير الأعيان والقيّاد كوسطاء بين الإدارة العسكرية الفرنسية (المكاتب العربية) والمجتمع "**الأهلي**" المحلّي.

لقد خلّف هؤلاء الضبّاط العسكريون رصيدًا مُعتبرًا من الدراسات الإثنوغرافية العسكرية التي تخصّ المجتمع الجزائري، وتستكشف مختلف جوانبه الاجتماعية، وخلفياته التاريخية وممارساته الدينية، وتهتمّ بالبيئة الجزائرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، مستغلّين تنقلاتهم عبر ربوع القطر الجزائري. وقد عمدوا غالبًا إلى تقسيم الجغرافيا الجزائرية في أعمالهم إلى (قبائل– تلّ– صحراء)، وكانت غايتهم التأسيس لتقسيمات جغرافية بما يخدم أهداف الاحتلال، وللفروقات العرقية والإثنية بين مناطق الجزائر؛ مثلما أسّسوا ضمن أدبياتهم وكتاباتهم منذ بداية الاحتلال لثنائية (عربي–قبائلي)، التي تُرجمت بدورها سياسة استعمارية بغيضة هي سياسة: "**فرّق تسُد**".

من أوائل الضبّاط العسكريين الفرنسيين الذين درسوا المجتمع الجزائري في العقود الأولى من الاحتلال

النقيب "**بواسونيي** Poissonnier"، الذي كان على اطّلاع واسع ودقيق بأحوال قسنطينة وضواحيها، وهو الذي تولّى منصب مدير الشؤون الأهلية بها منذ سنة 1844م، أما النقيب "**شارل دي نوفو** Charles de Neveux" فقد قام بإعداد دراسة طبوغرافية شاملة عن القطر الجزائري، واستطاع من خلال أعماله وأبحاثه فهم جغرافية الجزائر وتاريخها، وطبيعة تركيبتها الاجتماعية والدّينية، واستطاع فهم عادات وتقاليد المجتمعات المحلية، خاصة في منطقة الأوراس، وهو الذي تولّى إدارة المكتب العربي بباتنة سنة 1846م، ثم انتقل إلى إدارة الشؤون الأهلية بقسنطينة، وأنجز كتابه حول الإخوان والطرق الصوفية.

ولعلّ أشهر الضبّاط الفرنسيين الذين قدّموا دراسات تاريخية-إثنوغرافية عن الجزائر في القرن 19م؛ الضابط "**شارل فيرو** Charles Féraud"، وهو المترجم والباحث الذي اهتمّ بالمدن والقبائل الجزائرية، وقد عاصر نموذج دراستنا الجنرال "**أوجين دوماس**"، ويعتبر "**فيرو**" من بين الضبّاط العسكريين الفرنسيين القلائل الذين استخدموا القلم أكثر من البندقية، والفكر بدل الحرب (كعوان، 2020، صفحة 656)، وبهذا فإنّ غزوهم "**العلمي**" للجزائر، كان أخطر على الجزائريين من أساليب البطش والتقتيل والغزو العسكري.

ومن بين الضبّاط الفرنسيين الذين اهتمّوا بالبيئة الصحراوية الجزائرية وساكنتها الرائد "**سيروكا** Séroca"، الذي أشرف على المكتب العربي ببسكرة عام 1850م، كما اشتغل النقيب "**هيغونوت**Huguenot" على التاريخ المحلّي للمنطقة، وتوغّل النقيب "**بان** Ben" في الصحراء الجزائرية، حيث ألّف كتابه: "**رسائل عائلية حول القطر الجزائري**"، وكلّها أعمال ذات طبيعة عسكرية-إثنوغرافية بأبعاد استيطانية (بعلي، 2019، صفحة 96).

وخصّ الضابط "**لويس رين** Louis Rinn" المجتمع الجزائري "**الأهلي**" بعدّة أبحاث ومؤلفات، حيث درس جوانب من حياته الدينية في كتابه: "**مرابطون وإخوان** Marabouts et Khouans" الصادر عام 1884م (Rinn, 1884)، وقد تناول فيه المجتمع والدّين والطرق الصوفية في الجزائر، كما تطرّق إلى مكانة المرأة داخل الأسرة، وتأثيرها على العلاقات بين القبائل، خاصة عن طريق المصاهرات التي تتمّ بين زعماء القبائل والعائلات الكبرى والنبلاء لشراء السلم وتوطيد الأواصر بينها، وتناول "**رين**" مآثر العديد من النساء الشهيرات على غرار 'الكاهنة' و 'لالة فاطمة نسومر'، و'لالة الزهرة' المرأة التي صنعت شخصية المقاوم 'محمد بن عبد الله' في تلمسان، والذي صار سلطان ورقلة (Rinn, La femme bèrbère dans l'ethnologie et l'histoire de l'Algérie, 1905, p. 477).

كما جاء بعدهم إثنوغرافيون عسكريون ومدنيون آخرون، وقدّموا أعمالاً حول الجزائر والمجتمع "**الأهلي**"، من أبرزها العمل المشترك بين ضابط عسكري وموظف في سلك القضاء المدني هما: الجنرال "**هانوتو** Hanoteau" ورجل القانون: "**لوتورنو** Letourneux" الذين كتبَا حول منطقة القبائل (زواوة) والأعراف القبائلية

2.1. الضابط "أوجين دوماس" وأعماله الإثنوغرافية

من بين الضبّاط العسكريين الفرنسيين الذين قادوا جيش الاحتلال في حملاته العسكرية التوسّعية بعد الاحتلال؛ الضابط "**أوجين دوماس** Melchior-Joseph-Eugène Daumas"، الذي عاصر تلك الشلّة من

الضبّاط السفّاحين الذين ارتكبوا جرائمًا فظيعة في الجزائر منذ بداية الاحتلال؛ على غرار "سانت آرنو Saint Arnaud" و"**مونتيناك**" Montagnacو"**بيليسيي**" Pélissier... وغيرهم، لكنه لم يخلّف كتابات عن أعماله العسكرية، وجرائمه في حقّ السّكان؛ بقدر اهتمامه بالدراسات الإثنوغرافية حول الحياة "**الأهلية**"، وهو الذي وظّف أساليب الاستقطاب والتفاوض؛ قبل الغزو العسكري واستخدام العنف والتقتيل لتحقيق مآرب فرنسا في الجزائر.

1.2.1. نبذة عن حياة الجنرال "أوجين دوماس" ومهامه

أوجين دوماس ضابط عسكري برتبة جنرال؛ سيناتور وقنصل وكاتب فرنسي، ولد يوم 04 سبتمبر 1803م في منطقة "**ديليمون**" بسوسرا، والتحق بالجيش الفرنسي كمتطوّع ابتداء منذ عام 1822م، سُمّي ملازماً أوّلاً في سنة 1827م، ثمّ تمّ إرساله إلى مدرسة "**ساومير Saumur**" العسكرية للخيّالة، وقَدِم إلى الجزائر سنة 1835م تحت إمرة الماريشال "**كلوزيل Clauzel**"، هذا الأخير أرسله إلى معسكر ثم تلمسان، أين انخرط بحماس في دراسة اللغة العربية، واكتسب بسرعة معلومات واسعة ومميّزة عن العادات والتقاليد الجزائرية، وبين عامي 1837 و 1839م؛ عمل في منطقة معسكر قنصلاً للدولة الفرنسية لدى الأمير عبد القادر.

أوكل إليه الجنرال "**دو لاموريسيير de Lamoricière**" قيادة إدارة الشؤون العربية بعمالة وهران، ثمّ كلّفه الجنرال "**بيجو Bugeaud**" بإدارة الشؤون الأهلية في كامل القطر الجزائري، وقد أشرف "**دوماس**" بنفسه على تنظيم المكاتب العربية، ورسم السياسة الفرنسية تجاه السّكان المحليين، حيث تذكر بعض المصادر الفرنسية أنّ "**دوماس**" هو من اقترح على الجنرال "**بيجو**" عام 1842 م – في وقت كانت المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين في أوجّها– الإبقاء على الوضع القائم، وعلى التنظيمات التي أحكمها الأمير عبد القادر، وانتهاج سياسة حكيمة وليّنة تجاه القبائل العربية وشيوخها وأعيانها، بشرط الخضوع لسلطة الإدارة الفرنسية ودفع الضرائب؛ مقابل احتفاظهم بالزّعامة المحلية، وعدم المساس بالأعراف السائدة والقوانين المحلية السارية، وهي السياسة التي جنّبت الجيش الفرنسي الصدام المباشر مع القبائل المحلية، وعادت بالفائدة على المشروع الاستيطاني في الجزائر.

في ديسمبر من عام 1847م؛ أُرسل "**دوماس**" إلى فور لامالغ (fort Lemalgue) لمرافقة الأمير عبد القادر، وعاد سنة 1949م؛ ليشارك في عملية إخضاع قبيلة "**بني سالم**" بمنطقة زواوة، وهي القبيلة التي رفضت الخضوع للسلطة الاستعمارية؛ بعد استسلام الأمير عبد القادر (E.Daumas & Fabar, 1847)، وهو الذي يعترف بالصعوبة التي واجهت الفرنسيين في إخضاع منطقة القبائل واستيطانها؛ بسبب جهلهم بعادات وتقاليد المجتمع القبائلي خلال السنوات الأولى من الاحتلال (Daumas, 1853, p. 165).

في عام 1850م تولّى "**دوماس**" منصب مدير الشؤون الجزائرية (الأهلية) لدى وزارة الحربية الفرنسية، ورقّي إلى رتبة جنرال في 14 جانفي عام 1853م، ثم مستشار دولة؛ ثم صار سيناتورا في 12 أوت عام 1857م، وحصل على صليب وسام جوقة الشرف في 28 ديسمبر 1868م. وتوفي "**دوماس**" بضاحية كامبلان (Camblanes) قرب مدينة بوردو الفرنسية (Bordeaux) في شهر ماي سنة 1871م (Faucon, 1889, pp. 169-170).

1.2.1. مساهمة "أوجين دوماس" في الدراسات الإثنوغرافية الكولونيالية

خلّف "أوجين دوماس" العديد من الأعمال، وقد تُرجمت المؤلّفات الرئيسية منها إلى اللغتين الإسبانية والألمانية، وصدرت في فرنسا طبعات مختلفة لكتاباته حول الحياة المدنية والمجتمع (المسلم) في الجزائر؛ واهتمّ أيضًا بالحياة في الصحراء، حيث دوّن ملاحظاته عن "**الصحراء الجزائرية Le Sahara algérien**" وهو الكتاب الصادر بباريس عام 1845م، وكان شغوفًا بالخيول، كما خصّ منطقة القبائل بعدّة دراسات من بينها: "**قبائل الشرق 1844 les Kabyles de l'est**"، "**المجتمع القبائلي la société kabyle**" **سنة 1958م**، "**الحياة العربية والمجتمع المسلم la vie arabe et la société musulmane**" (Faucon, 1889, pp. 169-170)، وغيرها من الأعمال التي تهتم بالحياة العربية والمجتمع المحلي، وكان له شغفٌ بالغٌ بالصحراء والخيول العربية التي قدّم حولها عدّة مؤلفات وأعمال(Daumas E.)

والجنرال "**أوجين دوماس**" من الضبّاط العسكريين الفرنسيين الذين تعلّموا اللغة العربية واهتمّوا بدراسة مختلف جوانب المجتمع الجزائري المسلم (الأهلي)، وقد لعب دوراً مزدوجاً في نجاح عمليات الاستيطان في الداخل الجزائري، حيث ساهم في السيطرة على المقاومة الشعبية عبر عدّة مناطق، وفي منطقة القبائل تحديداً التي ظلّت عصيّة على الفرنسيين، فضلاً على أنّه كان رجل سياسي ومُفاوضاً بارعاً، وهو من الضباط السامين الفرنسيين الذين رسموا خريطة جديدة للصحراء الجزائرية، وفق معطيات تلك الفترة من الغزو والتوسّع (بوعزيز، 2013، صفحة 272).

لقد كانت لـ "**دوماس**" رحلات عديدة عبر الجزائر، وباتجاه الصحراء الجزائرية خاصة، حيث كانت رحلته الأولى سنة 1843م، من مدينة الجزائر إلى ورقلة عبر مدينة البليدة فالمدية وبوغار، ثم سهل تاغية، وسيدي بوزيد في الواجهة الشرقية لجبال عمّور؛ وصولاً إلى الأغواط، ثم غرداية وصولاً إلى ورقلة. وفي رحلته الثانية نحو توقرت؛ توجّه من الجزائر إلى سور الغزلان، وعَبَر المسيلة ثم بوسعادة، إلى منطقة الزيبان؛ وصولاً إلى بسكرة ومنها إلى توقرت، أما في رحلته الثالثة فقد قصَد استكشاف الطريق الرابط بين بسكرة والأغواط عبر سيدي خالد ومسعد وقصر الحيران في منطقة أولاد نايل (بن واز، 2020، الصفحات 249-250).

وتعكس مؤلّفات "**أوجين دوماس**" وآثاره التي خلّفها؛ سعة اطّلاعه وتنوّع معارفه بين علوم عسكرية وما يتّصل بها، وبين اطلاع على قواعد اللغة العربية واللّهجات المحليّة الدارجة، والترجمة والتاريخ وعلوم الجغرافيا... اكتسبها طيلة سنوات مكوثه بالجزائر، وقد خدمته وظيفته كمدير للشؤون الأهلية في أبحاثه وكتاباته بكلّ تأكيد، وهو بذلك يختلف عن بعض المستشرقين والإثنوغرافيين العسكريين الفرنسيين الذين حلّوا بالجزائر بعد الاحتلال، وساهموا في تسهيل مهمّة الجيش الفرنسي التوسّعية؛ بل امتاز عن الكثيرين منهم؛ بجمعه بين العمل الميداني العسكري والبحث الإثنوغرافي، بينما تتشابه مسيرته وأعماله مع ما قدّمه عالم الآثار والمستشرق "**أدريان بيربروجر**".

2. الاستشراق العلمي الفرنسي ومشروع احتلال واستيطان الجزائر

نقصد بالاستشراق العلمي تلك الدراسات والأبحاث العلمية الأكاديمية والميدانية التي قدّمها المستشرقون الفرنسيون عقب احتلال الجزائر، وقد تركّزت أعمالهم في حقول اللغات الشرقية والترجمة، والتاريخ والجغرافيا، والنبش في التراث العربي– الإسلامي بالجزائر، مع الإشارة إلى أنّ العديد من هؤلاء المستشرقين كان قد رافق 'نابليون' في حملته على مصر، واكتسب الكثير من التجارب والخبرات في دراسة المجتمعات الشرقية، وقد وظّفوا ذلك في اختراق المجتمع الجزائري، وتفيك تركيبته؛ خدمة للمشروع الاستيطاني الفرنسي، وتحقيقًا لأهدافهم الخاصة.

ويرتبط الاستشراق (Orientalism) كمفهوم شامل بدراسة العديد من الجوانب؛ كالدّين فيسمّى الاستشراق الديني، والفنّ فيُطلق عليه الاستشراق الفنّي؛ لأجل ذلك ربطنا الاستشراق هنا بالدراسات ذات الطابع العلمي التي وظّفت الأساليب العلمية والمنهجية في دراسة البيئة الجزائرية، وفهم تاريخ وماضي منطقة شمال إفريقيا ككلّ، وقد يكون الجانب العلمي أحد أهداف الاستشراق (القاسم، 2014)، وقد كانت له آثار إيجابية حيث سمح بالكشف عن التراث والمخطوطات والآثار المادية، وصونها من الضياع وتصنيفه، والتعريف بها من خلال ترجمتها ونشرها بلغة المستشرق الأمّ، وجوانب سلبية كثيرة، منها تطويع هاته الدراسات لخدمة أغراض إيديولوجية واستعمارية، كما كان الحال مع المستشرقين الفرنسيين في الجزائر المُستعمَرة.

1.2. نظرة على الاستشراق العلمي عند بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر

تعدّدت مظاهر الاستشراق الفرنسي في جزائر القرن التاسع عشر، كما تنوّعت مجالات نشاط المستشرقين؛ فقد حضر المؤرّخون والجغرافيون واللّغويون ورجال الدّين المسيحيين، والفنّانون والرّسامون، والمهتمّين بالتراث العربي–الإسلامي من مخطوطات ومصنّفات دينية وغيرها، والمولعون بجمع الأدوات والتّحف القديمة والمتاجرة بها... هذا فضلاً عن نشاط الضبّاط العسكريين الذين اهتموا بالثقافة الشرقية في الجزائر واللغة العربية وآدابها، واللهجات المحلية الدارجة، فساهموا في دراسة مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في الجزائر ومنطقة شمال إفريقيا، واستغلّوها كمعطيات في التخطيط لاحتلال تونس والمغرب، وباقي مناطق إفريقيا.

عرفت الجزائر أشكالاً من الاستشراق الذي كان يخدم الاحتلال في جميع المجالات، فكان الاستشراق العسكري، والاستشراق العلمي الذي وضع الأسس النظرية والتطبيقية لسياسة الغزو والتوّسع، وأدّى اللغويون وظائفًا مهمّةً في الترجمة والدراسات اللغوية التي اعتنت بالغة العربية واللّهجات المحلية (العربي، 2007، صفحة 1)، وهي التي فتحت قنوات التواصل مع الجزائريين، ومهّدت سبيل السيطرة عليهم، ونجد الاستشراق الفنّي الذي اهتمّ بمظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر، ورسم صورة عن المرأة ومجتمع الحريم؛ بنظرة استشراقية تراوحت بين الحقيقة والمبالغة والتزييف، وقد وُظّف الاستشراق كأداة لغزو الجزائر ثقافياً وفكرياً ودينيًا في محاولة لإحياء الكنيسة الكاثوليكية عن طريق سياسة التنصير، وفي الدّعاية للمشروع الاستيطاني في أوساط الفرنسيين والأوربيين؛ بغية تحفيزهم على القدوم، وجذب أكبر عدد ممكن منهم إلى الجزائر؛ لاستيطانها وتعميرها؛ بهدف

إنجاح مشروع احتلالها.

يمكن أن نذكر بعض الشخصيات الاستشراقية الفرنسية والأوربية وحتى المشرقية المسيحية التي حلّت بالجزائر عقب احتلالها، وعملت على وضع اللّبنات الأولى للاستشراق العلمي في جزائر القرن التاسع عشر الميلادي، على غرار: "**البارون ديسلان** Le Baron De Slane"، "**سلفيستر دي ساسي** Silvestre de Saci"، "**بريزنيي** Bresnier"، "**شيربونو** Cherbonneau"، ومن المسيحيين المشارقة "**جوني فرعون** Johny Feraoun" و "**جون شارل زكار** John Charles Zekkar" وغيرهم؛ ممن نشطوا في حقول الدراسات اللغوية والترجمة، وتولّوا الكراسي العلمية، وساهموا في تأسيس الجمعيات التاريخية والأثرية بقسنطينة وعنابة وبجاية ووهران...، وإنشاء المجلات العلمية والتاريخية، مثل "**المجلة الآسيوية**" سنة 1822م، ثمّ "**المجلة الإفريقية**" في عام 1856م، وعقد المؤتمرات الاستشراقية بالجزائر في نهاية القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من القرن العشرين.

2.2. أدريان بيربروجر والمشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر

وصل "**لويس أدريان بيربروجر** Louis Adrien Berbrugger" إلى الجزائر سنوات قليلة بعد الاحتلال، وهو الذي زارها لأول مرة عام 1832م؛ ليقرّر الاستقرار بها نهائيًا في سنة 1834م، وساهم في التأسيس للمدرسة التاريخية الكولونيالية الفرنسية بالجزائر، ويعدّ أحد أبرز المستشرقين الفرنسيين الذين اهتمّوا أساسًا بالبحث في الآثار والتاريخ القديم للجزائر ومنطقة المغرب العربي، كما تميّز بكتابته في مواضيع شتى تخصّ تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا عبر العصور، وخدمته الاستيطان والجيش الفرنسي معرفيًا وسياسيًا.

1.2.2. نبذة عن أدريان بيربروجر ومنجزاته في الجزائر

"**لويس أدريان بيربروجر**" عالم آثار ومستشرق فرنسي من أصول ألمانية، وُلد بباريس في 11 ماي 1801م، أكمل دراسته في مدرسة شارلمان الثانوية، ثم التحق بمدرسة شارت العليا، أين درس الطبّ بين عامي 1824-1829م. دفعه ميوله إلى التاريخ والآثار إلى تلقّى دورات في علم الحفريات في شامبليون-فيجاك في مدرسة شارت (L'école des chartes) بين سنتي 1829-1832م، واختار التّخصص في علم الآثار. ونتيجة لنبوغه وميولاته العلمية؛ تمّ تكليفه سنة 1832م بمهمّة البحث عن القطع الأثرية التي يرجع عهدها إلى زمن الحملات الفرنسية (Messaoudi, 2015, p. 62)، وبعد ذلك بسنتين؛ أي في سنة 1834م؛ سافر إلى الجزائر، حيث شغل وظيفة كاتب لدى الوالي العام "**كلوزيل** Clauzel".

تؤكّد جلّ المصادر أنّ "**بيربروجر**" قد دخل الجزائر سنة 1834م، وتمّ تعيينه في 13 أكتوبر 1836 مُحافظاً لمكتبة مدينة الجزائر العامة، وبنهاية هذه السنة صار يتولّى ثلاث وظائف هي: محافظ مكتبة مدينة الجزائر العامة، ورئيس تحرير جريدة 'المُرشد الجزائري Moniteur algérien'، والكاتب الخاص للماريشال "**كلوزيل**". وفي عام 1837 تم إرسال "**بيربروجر**" في مهمّة إلى قالمة، حيث قام باكتشافات أثرية مُثيرة للاهتمام في المدينة الرومانية القديمة؛ مما أكسبه الميدالية الذهبية من أكاديمية النقوش والآداب الجميلة، التي أصبح في

عام 1839 عضوًا مناظرًا فيها (memoire afrique du nord).

بعدما تمّ استبدال المارشال "**كلوزيل**" بالمارشال "**دامريمون Damrémont**"، استقال "**أدريان بيربروجر**" من منصبه كرئيس تحرير صحيفة المبشّر، وكرّس نفسه لعمله كأمين مكتبة وعالم آثار. وفي عام 1838، حصل على صليب جوقة الشرف، وتم تعيينه عضوا في اللجنة العلمية الجزائرية، وقام برحلة جديدة إلى قسنطينة، وعدّة استكشافات في جبل إدوغ، وأبحاث في شرشال، وبعدها اختاره أسقف الجزائر ليكون عضواً مُفاوضًا ضمن لجنة تبادل الأسرى مع الأمير عبد القادر، وكان ذلك في مطلع سنة 1838م (Berbrugger A. , 1843)، ليصبح "**بيربروجر**" عضو اللّجنة العلمية الأكاديمية الملكية الفرنسية في الجزائر 1842م (حفيان، 2019، صفحة 608).

تزوّج عالم الآثار "**أدريان بيربروجر**" من امرأة جزائرية قسنطينية تدعى "**زهور محمد والي**"، وتمّ ذلك في سنة 1841م؛ أثناء مهمّة له ضمن "**لجنة الاستكشاف العلمي للجزائر**"، وهي اللجنة التي بدأت أعمالها بالجزائر منذ 27 ديسمبر من عام 1839م، أين أمضى أعضاؤها ثلاثة أشهر بالجزائر العاصمة، لينتقلوا بعدها إلى الشرق الجزائري، حيث حلّت هذه اللّجنة بقسنطينة بتاريخ 13 مارس 1840م، وأقام أعضاؤها بقصر الباي، وهو مقرّ إقامة "**إسماعيل أوربان**" (Chesworth & Chachoua, 2021, p. 961). وقد يكون لـ "**بيربروجر**" أهداف سياسية ومآرب علمية من وراء هذا الزواج؛ لعلّ أهمّها التقرّب من العائلات العلمية القسنطينية العريقة؛ خدمة لأبحاثه ونشاطه في جمع المخطوطات والكنوز التراثية الثمينة.

حصل "**بيربروجر**" على وسام جوقة الشرف عام 1865م، وقد قلّده إيّاه الإمبراطور "**نابليون الثالث**"، وكان ذلك أثناء زيارة الأخير إلى الجزائر (Messaoudi, 2015, p. 63)؛ ونال هذا الوسام تكريمًا له على أعماله المتنوّعة، وتميّزه الإداري كمحافظ مكتبة ومتحف الجزائر، ولاسيما على جهوده في خدمة إدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وأبحاثه العلمية في مجال البحث والاستكشاف الأثري، وهي الجهود والأعمال التي مهّدت الطريق للمشروع العلمي–الاستشراقي الفرنسي بالجزائر، فضلاً عن أدواره والأعمال والمهام التي تولاّها بالجزائر لصالح المشروع الاستيطاني طيلة 35 سنة، والخدمات الجليلة التي قام بها لصالح بلاده فرنسا.

توفي "**أدريان بيربروجر**" بالجزائر العاصمة في شهر جويلية عام 1869م؛ ليخلفه على رأس مهامه في الجزائر صديقه المستشرق "**شيربونو**"، كما حرص الساسة ورجال الدّين الفرنسيون على تخليد ذكراه؛ فأطلقوا استكتاب عام؛ من أجل جمع الأموال؛ لبناء حجر لوميري يخلّد ألقابه ومهامه، وقد ساهم في هذا الاستكتاب الكاردينال "**لافيجري** Lavigerie"، اعترافًا بجهوده في خدمة الكنيسة الكاثوليكية بالجزائر، واستكشافاته الأثرية الكثيرة التي أحيت تاريخ الكنيسة الرومانية بالجزائر وشمال إفريقيا، ومنها اكتشافه لضريح أحد رؤسائها "**جيرومينو** Geronimo" (Chronique, 1869, p. 423) .

وقد تولّى مستشرق آخر هو "**شيربونو** Charbonneau" تأبين ورثاء صديقه "**بيربروجر**"، كما خلفه في تسيير مكتبة ومتحف مدينة الجزائر (Faucon, 1889, pp. 59–61).

2.2.2. دور "بيربروجر" في الاستشراق العلمي الفرنسي

يعدّ "**أدريان بيربروجر**" من الشخصيات العلمية الفرنسية التي خدمت الاستعمار الفرنسي في الجزائر بإخلاص ومهارة، وقد سعى طول فترة إقامته بالجزائر إلى جمع أكبر قدر من التّحف والمخطوطات والكتابات النادرة. كما أسّس الجمعية العلمية التاريخية عام 1856م، وقبلها مكتبة ومتحف مدينة الجزائر، وشارك في مختلف الفعاليات الكولونيالية المختلفة، وخدم المشروع التوسّعي الاستيطاني الفرنسي بالجزائر بكلّ تفاني.

يقول "**بيربروجر**" عن هدفه الشخصي في الجزائر، والذي يُدرجه ضمن الرسالة الثقافية والحضارية الفرنسية: "**إنّنا نريد أن نعمل في نطاق المُستعمرة وفي نطاق الوطن الأم [فرنسا]، وهنا نريد أن نطوّر عواطفنا التي تجعلنا ننظر إلى إفريقيا [الجزائر] كوطننا الثاني، والتي توحي إلينا بالمحبّة لهذا البلاد، التي لنا فيها مهمّة جليلة هي خلق شعب جديد، وتسوية مشاكل اجتماعية خطيرة (...) نريد أن لا نبقى ننظر إليها [الجزائر] وكأنّها مركز للعبور، لقد حان الوقت لكي نعمل كل ما في وسعنا من أجل أن نؤكد للوطن الأم بأنّ إفريقيا في إمكانها أن تصبح قوة لفرنسا، وتصبح غنية بها كذلك**" (هلايلي، 2005، الصفحات 149-158).

خلّف "**أدريان بيربروجر**" العديد من الأعمال التاريخية والأثرية حول الجزائر، لخّصت مسيرة تناهز خمسة وثلاثون (35) سنة من البحث الأثري والتنقيب عن الإرث الحضاري والعِمراني الروماني في الجزائر، وقد نشر ما بين عامي 1832 و1867م حوالي واحد وثلاثون (31) دراسة مونوغرافية، تعرّف بشخصيات فرنسية معاصرة، كما حرص على نشر إضاءات عن الأعمال في شكل مقالات في "**المجلة الإفريقية**"، وهو الذي كان يتولّى رئاسة تحريرها.

ومع أنّ جلّ أعماله كانت ذات صلة بتاريخ الجزائر كانت خاصة بالتاريخ القديم والتاريخ الروماني بالتحديد؛ إلاّ أنّه اهتمّ بتاريخ الجزائر في العهد العثماني وببعض شخصيات وفصول المقاومة الجزائرية في بداية الاحتلال الفرنسي؛ ومع سنقتصر هنا على ذكر بعض أعماله التي لها صلة بتاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، والتي أرّخت للاحتلال الفرنسي والمقاومة بالجزائر:

- علاقة بغزو معسكر= Relation de l'expédition de Mascara, Paris, 1836.

- رحلة إلى معسكر عبد القادر، إلى حمزة وجبال ونوغة (مقاطعة قسنطينة) في ديسمبر 1837 وجانفي 1838= Voyage au camp d'Abd-el-Kader, à Hamzah et aux montagnes de Wannourhah (province de Constantine)، الصادر سنة 1839م، وقد قام بترجمة نصّ الرحلة إلى اللغة العربية وتحقيقه المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله، وصدرت تحت عنوان: رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838).

- مفاوضات بين أسقف الجزائر وعبد القادر لتبادل المساجين= Négociations entre Monseigneur l'évêque d'Alger et Abdelkader pour l'échange des prisonniers

– ترجمته لرحلة العياشي من العربية إلى الفرنسية، وقد نشرها عام 1846م تحت عنوان: رحلات في جنوب الجزائر والولايات البربرية الغربية والشرقية= " Voyages dans le sud de l'Algérie et des États barbaresques de l'ouest et de l'est" (1846) de Aïachi et autre(s)،

– كتاب بعنوان: الاستكشاف العلمي للجزائر الجزء الأول والثاني= Exploration scientifique de l'Algérie I–II, édition imprimerie royale, Paris, 1847.

– المراحل العسكرية للقبائل الكبرى، بقلم أ. بيربروجر= Les Époques militaires de la Grande Kabilie الصادر عام 1859م.

– (حصن) البينيون بالجزائر العاصمة، أو أصول الحكومة التركية بالجزائر Le Pégnon d'Alger, ou Les origines du gouvernement turc en Algérie, Challamel Librairie., Alger, 1860.

– منشور تعريفي بمكتبة– متحف الجزائر (العاصمة)= (1860) Bibliothèque–musée d'Alger، Imprimerie de Bastide, Alger, 1860.

– الآبار الارتوازية بالواحات الجنوبية للجزائر= Les puits artésiens des oasis méridionales de l'Algérie، وقد صدرت طبعته الثانية سنة 1862م.

– ترجمة لكتاب: طوبوغرافيا وتاريخ عام الجزائر، تأليف دييغو دي هايدو (Diego de Haedo)، بمعية "د. مونرو "D. Monnereau = Topographie et histoire générale d'Alger" (1998) de Diego de Haëdo avec Adrien Berbrugger comme Traducteur ، وقد نُشرت مقتطفات منه في 'المجلة الإفريقية' خلال عامي 1870–1871.

3.2.2. اهتمام "بيربروجر" بجمع وتصنيف المخطوطات

رافق "**بيربروجر**" الحملات العسكرية الفرنسية على الجزائر شرقًا وغربًا خلال السنوات الأولى من الاحتلال، واستغلّ الفرصة لجمع أكبر عدد من المخطوطات ونقلها إلى مكتبة مدينة الجزائر التي كان يُشرف على إدارتها. وفي هذا السياق ذكر حول الحملة الفرنسية المتوجّهة نحو معسكر عام 1835م، والتي رافقها متنكّراً بزيّ عسكري: "**حملاتنا العسكرية أتلفت أغلبية الكتب ودمّرت أغلبية المدارس، وبعض بقايا تلك الكتب الأدبية أُنقذت من الإتلاف من قِبل أصدقاء العلم، ووُضعت بمكتبة مدينة الجزائر**" (سعد الله، 1998، صفحة 333).

وفي الشرق الجزائري؛ امتدت يد "**بيربروجر**" إلى وادي سوف جنوبًا، واستطاع الحصول على مخطوطة كتاب "**العدواني**" لصاحبه "**محمد القسنطيني العدواني**" وهذا عام 1850م. إضافة إلى حصوله على العديد من عقود أملاك عائلة الأمير عبد القادر بمعسكر بعد دخول القوات الفرنسية لها. وقد أطْلع بروجر الأمير عبد القادر على هذه الوثائق عند لقائهما في عام 1837م، كما سلّمه على هامش هذا اللقاء نسخة نفيسة من كتاب: "**دلائل الخيرات**"، والتي سُلبت من خزائن قسنطينة، ولقد لاقت هذه الخطوة وهذه النسخة؛ استحسان الأمير عبد القادر، الذي استقبلها بغبطة شديدة (بن عربة، 2022، الصفحات 44–58).

هذه المصادر المخطوطة كانت متعددة، والحصة الأكبر منها موطنها قسنطينة، فقد ذكر أنّ العقيد "**دو لامورسيير**" قد سلّمه مخطوطتين في الدّين؛ وجدهما في ضريح أحد المرابطين بقسنطينة، وأنّه اشترى من بعض الجنود مخطوطات ثمينة؛ كانوا قد نهبوها من المدينة أثناء اجتياحها في أكتوبر 1837م. كما أنّ المتصرف العسكري قدّم له ثلاث وستون (63) مخطوطاً، وأعانه على نقلها إلى الجزائر العاصمة. ويخبرنا "**أدريان بيربروجر**" أنّه جمع من قسنطينة وحدها ثلاثة عشر (13) صندوقًا من المخطوطات؛ لم يصل منها إلى مدينة الجزائر سوى ثمانية صناديق، وكانت تضمّ خمسمائة (500) مخطوط، كما رافق الحملة الفرنسية على معسكر وتلمسان والمدية (هلايلي، المستشرقون الفرنسيون وإعادة بعث مخطوطات الجزائر وتنظيمها (1830-1962)، 2014، الصفحات 301-332).

كانت المخطوطات التي جمعها "**بيربروجر**" من قسنطينة بحالة جيّدة، من حيث الشكل والتجليد، وقد قام بجمع هذه المخطوطات من الزوايا والمدارس والمساجد، بالإضافة إلى ما حصل عليه من الجنود، وتُشير التقارير على أنّه تحصّل على ما يزيد عن ثمانمائة (800) مخطوط (سعد الله، 1998، صفحة 337)، عاد بها إلى مدينة الجزائر. في حين يُشير "**بيربروجر**" نفسه إلى ما مجموعه 1100 مخطوط، تحصّل عليها عقب الحملة الفرنسية على قسنطينة ومعسكر وتلمسان، تحتوي على معارف وعلوم إنسانية بنظرة عربية، خاصة في الجانب المتعلّق بالقرآن وشخصية النبي محمد ﷺ، وكذلك العديد من المخطوطات في التاريخ والجغرافيا، والرحلات والطبّ وعلم الفضاء والفيزياء والسحر والميتافيزيقا (حفيان، 2019، صفحة 608).

اهتمّ "**بيربروجر**" بالوثيقة التاريخية عمومًا، اعتمادًا على ما جمعه أثناء حملات الفرنسيين على المدن الجزائرية، فسار معها في البلاد شرقًا وغربًا، أثناء الحملة التي قادها الجنرال "**دامريمون Damrémont**" على مدينة قسنطينة، والتي أدّت إلى احتلالها، ووضع يده على مكتبتها. كما استولى على مكتبة الأمير عبد القادر المتنقّلة أثناء حملة "**كلوزيل**" على معسكر عام 1835، هذه المخطوطات التي قام بجردها وترجمة بعضها (...) إضافة إلى ما جمعه خلال رحلاته العلمية بين المدن الجزائرية، حيث عمل على جمع الوثائق والمخطوطات التي كانت بين يدي الجزائريين، عن طريق الشراء من العائلات التي تملك هذه المكتبات، والتي اضطرّت تحت دافع الفاقة إلى بيعها له، مثل مخطوطات مُفتي وهران والجزائر "**حسن بولحبال**"، وعائلات "**بلحاج**" و "**بن ديدوش**" في تلمسان، وقد ضمّت هذه المخطوطات أصنافًا مختلفة من العلوم؛ كالتشريع والفلسفة والجغرافيا والتاريخ، وهي تعود إلى القرن السادس والسابع الميلادي (حفيان، 2019، صفحة 609).

3. العلاقة بين الإثنوغرافيا والاستشراق في ضوء أعمال "دوماس" و "بيربروجر"

من خلال هذه المقاربة نبحث في نقاط الاشتراك والتلاقي بين عمل الإثنوغرافيين العسكريين الفرنسيين من خلال نموذج "**أوجين دوماس**"، والدور الذي لعبه الاستشراق العلمي من خلال نموذج "**أدريان بيربروجر**" في دعم عمليات الجيش الفرنسي للتوسّع والاستيطان في الجزائر، وهو الدّعم الذي تمظهر في جانبين: **الأوّل** إثنوغرافي-عسكري و**الثاني** استشراقي-علمي. كما نرنو إلى البحث في احتمالية التعاون بين الجنرال "**أوجين**

دوماس" والمستشرق "**أدريان بيربروجر**"، سيما وأنّها عاصرا بعضهما، وعاشا في الفترة نفسها في الجزائر، وخدما الجهة نفسها وهي حكومة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وكانت غاياتهما وأهدافهما مشتركة بل تكاد تكون واحدة.

1.3. مظاهر التلاقي بين الإثنوغرافيا العسكرية والاستشراق العلمي

من المؤكد أن الجيش الفرنسي الغازي للجزائر قد سخّر كلّ الامكانيات لتحقيق الهدف المنشود؛ وهو احتلال واستيطان الجزائر بأقلّ التكاليف وبكلّ الوسائل المتاحة. وقد ظهرت الحاجة إلى دراسات إثنوغرافية وعلمية متخصّصة عن الجزائر وخصائصها الطبيعية والبشرية؛ لأجل ذلك استنجد الضبّاط بالمستشرقين، وأتاحوا لهم الوسائل الضرورية للشروع في عملهم، كما أنّ من المستشرقين من كان شغوفًا باستكشاف الجزائر–مثلما هو الحال مع "**بيربروجر**"– الذي بادر إلى الاتصال بقيادة السلطة العسكرية القائمة في الجزائر، والعمل إلى جنبهم وتحت إشرافهم، كما اندمج في أوساط العساكر الفرنسيين، واضطرّ أحيانًا إلى ارتداء الزيّ العسكري بغرض التمويه، مع أنّه حافظ على صفته المدنية، وسار إلى رفقة جحافل الاحتلال لتنفيذ مؤموريته في استكشاف آثار ومعالم الجزائر، ومساعدة الضبّاط ودعمهم بالمعطيات العلمية الضرورية لتنفيذ مهامهم.

ضمن هذا الإطار يذكر "**أدريان بيربروجر**" ذلك الدعم المُطلق الذي وجده من طرف "**دامريمون**" وقبله "**كلوزيل**" حين عزم على تنفيذ مشروع افتتاح مكتبة عامة ومتحف بمدينة الجزائر، ولطالما أشار في مؤلّفاته إلى الخدمات التي قدّمها له قادة الجيش في سبيل تيسير تنفيذ مهامه، والقيام بأبحاثه.

من جهة أخرى؛ فقد تكون وظيفة الضابط "**أوجين دوماس**" العسكرية، والتزاماته المهنية وأعباء المسؤوليات التي كانت على عاتقه، لم تتح له الكثير من الوقت لتقديم ما قدّمه نظيره "**بيربروجر**"، لكن وظيفته هاته سمحت له بتجميع المعطيات الميدانية عن نمط المعيشة الجزائرية، وخصائص الحياة الاجتماعية والدّينية، وسهّلت له تأليف العديد من الأعمال التي سبق ذكرها، وأتاحت له التجوال من شمال الجزائر إلى جنوبها، وربط علاقات مع الأمير عبد القادر وغيره من الأعيان الجزائريين.

قد نجد مظاهر للتعاون في المجلة الإفريقية، من خلال بعض المقالات التي كتبها الجنرال "**دوماس**" بها، ومنها مقال حول: "**الكياسة الصبيانية والاستقامة عند العرب**" (Daumas, La civilité puérile et honnete chez les arabes, 1958, p. 157)، كما نشرت له ذات المجلّة كتابه حول المرأة العربية، والذي لم يتمكن من نشره قبل وفاته وخلّفه مخطوطا (Daumas, La femme arabe, 1912, pp. 1–155).

2.3. نقاط التشارك والتقاطع بين مسيرة وأعمال "دوماس" و "بيربروجر"

وصل كل من "**دوماس**" و "**بروجر**" إلى الجزائر بعد الاحتلال ببضعة سنوات، حيث حلّ الأخير بها سنة 1834م، وجاء الأول سنة بعده؛ أي عام 1835م. ورغم اختلاف وظيفة الرجلين ومهامها ضمن المشروع الكولونيالي الاستيطاني الفرنسي في الجزائر؛ إلاّ أنّ الغايات كانت واحدة، وهي تثبيت ركائز الاستيطان، وتفنيد وجهة النظر القائلة بأنّه لا جدوى من احتلال إفريقيا (الجزائر) وضورة الانسحاب منها.

وممّا يؤكّد طرحنا هذا؛ ذلك التعاون الوثيق الذي قام بين العسكريين والمدنيين الفرنسيين؛ بغية المضي قدما في غزو الجزائر عسكريا وفكريًا وحضاريًا، وكذلك الدّعم المُطلق الذي حظيت به الدراسات العربية الاستشراقية منذ بداية الاحتلال، سواء من طرف قادة جيش الاحتلال بداية بقائد الحملة الفرنسية سنة 1830م "**ديبورمون**" ثم خليفته "**كلوزيل**"، أو من طرف الحكّام العامون الفرنسيون الذين تولّوا تسيير الشؤون الجزائرية في هذه المرحلة، وفي المراحل التي تلتها.

نلاحظ أنّ كل من "**دوماس**" و "**بيربروجر**" عَكَفا على تعلّم اللغة العربية، وسعى كل منهما إلى إتقان اللّهجات المحلية؛ بغية التواصل مع السّكان، وربط علاقات وديّة مع شيوخ القبائل والأعيان والوجهاء، ومحاولة فهم ذهنيات الجزائريين وطريقة تفكيرهم وعيشهم، وعاداتهم تقاليدهم الاجتماعية في مختلف المناطق الجزائرية، وحَرَصا على الاطّلاع على الثقافة العربية والثقافات المحليّة، والتواصل مع المثقّفين ورجال العلم بالجزائر، كما أنّهما كَتَبا حول بعض المسائل اللغوية، لكن من اختلاف في هذا الجانب، حيث أنّ "**بيربروجر**" كان مهتمّا أيضا بالدراسات اللغوية الفرنسية–الإسبانية، بينما انصبّ اهتمام دوماس على بعض الجوانب في اللغة العربية.

وإذا كان الجنرال "**دوماس**" قد سخّر فهمه للغة السّكان لتسهيل مهام الجيش الفرنسي، وأداء وظيفته كمدير للشؤون الأهلية؛ وجمع المعلومات الشفوية بمساعدة الضبّاط والجنود الذين كانوا يعملون تحت إشرافه وقيادته، فإنّ "**بيربروجر**" قد استغلّ أيضًا معرفته باللغة العربية في ربط علاقات مع علماء الجزائر ومثقّفيها، والتواصل مع الوجهاء والعائلات العلمية والأسر الجزائرية العريقة، كما هو الحال مع أسرتي آل الفكون وباشتارزي في قسنطينة، وأسر أخرى في تلمسان ومعسكر... وغيرها.

كان هدف "**بيربروجر**" الأساسي جمع التراث المخطوط للجزائر، وتنمية مجموعات مكتبة الجزائر العامة التي كان يُشرف على إدارتها بنفسه، وقد تحقّق له ذلك أيضا بدعم مُطلق من ضبّاط الجيش الفرنسي، وفي مقدمهتم الجنرال "**راندون Randon**" الذي وفّر له دعما غير مشروط لتأسيس "**الجمعية التاريخية الجزائرية**" ثم "**المجلة الإفريقية**" (La Revue Africaine) سنة 1856م (بكوش، 2010/2009، صفحة 249). كما أنّ الضبّاط الفرنسيين كانوا يزوّدونه بما يعثرون عليه من معلومات حول التحف الأثرية والمخطوطات، ويطلعونه على اكتشافاتهم الأثرية، ويفيدونه بالمعلومات الطوبوغرافية والجغرافية اللازمة خلال رحلاته الطويلة، ويطلبون منه الاستشارة الفنية في عملياتهم العسكرية، وهذا ما ذكره هو نفسه في سياق التقديم لبعض مؤلفاته، حيث كان يُدين بالفضل دومًا لقادة الجيش الاستعماري الفرنسي في الجزائر، والضبّاط العاملين تحت إمرتهم.

ونجد تشابهاً لافتًا في مسار الرجلين منذ وصولهما إلى الجزائر، حيث ساهم كلّ منهما في الجانب السياسي، وعملا تحت راية الدولة الفرنسية؛ سيما في الاتصال بالأمير عبد القادر، والقيام بمهام لصالح الحكومة الفرنسية لدى حكومة الأمير، فقد ارتحل "**بيربروجر**" في نهاية شهر ديسمبر 1837 ومطلع شهر جانفي 1838م، إلى برج حمزة (البويرة) ضمن وفد فرنسي؛ بغية لقاء الأمير عبد القادر، والتفاوض لإطلاق سراح الأسرى، في حين ربط الجنرال "**أوجين دوماس**" اتصالات دائمة وعلاقات شخصية مع الأمير عبد القادر، ورافقه إلى منفاه

بعد استسلامه، وناقش معه عديد القضايا التي تخصّ المجتمع "**الأهلي**"، وقد طرح عليه جملة من الأسئلة تتعلّق بالمرأة المسلمة "**الأهلية**"، ونظرة الدين الإسلامي لها، وكذا وضعها ومكانتها الاجتماعية في ظلّ العادات والتقاليد، ونظرة الدين الإسلامي لها.

وتبدو هاتين المهمّتين في ظاهرها ذات طبيعة سياسية–دبلوماسية، لكن في حقيقتها كانت ذات طبيعة استكشافية تجسّسية، فلا غرابة أن نجد أنّ كلا الرجلين كانت لهما مهمّة إلى معسكر الأمير عبد القادر في وقت متزامن تقريبًا، وفي مرحلة اشتدّ فيها الصراع بين جيش الأمير والجيش الفرنسي؛ سيما عقب احتلال قسنطينة، فكانت نظرة الرجلين تقوم على توظيف أسلوب المفاوضات وتفعيل السبل الدبلوماسية؛ لتحرير الرهائن الفرنسيين لدى الأمير عبد القادر، وتحقيق ما لم تستطع الأساليب العسكرية تحقيقه، خلال سنوات من الصراع مع الأمير، كما نجد أنّ كلاهما قد أغفل الحديث في مؤلّفاته عن الدور التّجسسي الذي قام به "**ليون روش Léon Roches**"، وهذا يدخل ربما في باب المواربة والتغطية على أعماله.

وممّا يلفت الانتباه ذلك التشابه في أعمال الرجلين من حيث العناوين وأحيانًا في المضامين، فكلاهما اهتمّ اهتمامًا خاصًا بدراسة منطقة زواوة (القبائل) وكتب عنها، فقد ألّف 'دوماس' كتابه: القبائل الكُبرى: دراسة تاريخية (La grande Kabylie : Etude historique) عام 1847م، وهو الكتاب الذي يُشير إليه "**بيربروجر**"، ويعتبره أحد أهم الكتب في موضوعه (Berbrugger, 1853, p. 39)، وفي الوقت قريب منه مؤلف "**دوماس**" المذكور؛ ألّف "**بيربروجر**" كتابه: "**القبائل الكبرى تحت حكم الرومان= La grande kabilie sous les romains**" عام 1853م، وكتابه الآخر: "**المراحل العسكرية للقبائل الكبرى= Les époques militaires de la grande kabilie**" سنة 1857م.

كما كان لـ "**دوماس**" اهتمام بالصحراء الجزائرية التي زارها عدّة مرات وكتب حولها، بينما انصبّ اهتمام "**بيربروجر**" بالمناطق التي تزخر بالمعالم والمواقع الأثرية عبر القطر الجزائري، ولا نجد له سوى مؤلّف واحد حول الآبار الارتوازية في الصحراء.

خاتمة

تناولنا في هذه الورقة مسيرة وأعمال شخصيتين استشراقيتين فرنسيتين؛ حضرتا إلى الجزائر مع بداية الاحتلال الفرنسي، وقامتا بأعمال معتبرة لصالح الإدارة الاستعمارية وخدمتا المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر؛ أحدهما ضابط عسكري هو "**أوجين دوماس**"؛ اهتم بمجال البحث الإثنوغرافي، وكتب عن المجتمع والحياة الاجتماعية في جزائر القرن 19م، والآخر مستشرق وعالم آثار هو "**أدريان بيربروجر**" الذي تنوّعت نشاطاته واهتماماته بين العلمية والسياسية، والاهتمام بالمخطوطات والتراث. وقد قدّمنا مقاربة حول دور الإثنوغرافيا والاستشراق في خدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر، من خلال أعمال هاتين الشخصيتين، وتوصّلنا إلى الاستنتاجات التالية:

– رغم أنّ السياسيين الفرنسيين وكبار قادة الجيش الفرنسي الغازي قد عوّلوا منذ بداية الاحتلال على أساليب القوة العسكرية في غزو الجزائر واستيطانها؛ إلا أنّ بعض الضبّاط والمستشرقين قد التقوا حول رؤية مختلفة، كما هو شأن النموذجين الذين قدمناهما: "**أوجين دوماس**" و"**أدريان بيربروجر**"، الذين آمنا بأنّ توطيد ركائز الاستيطان وإنجاح المشروع الاستعماري يمكن أن يتمّ بأساليب بديلة؛ تعتمد على سياسة الاستقطاب والتفاوض مع الأعيان المحليين، وتكوين فئة من الجزائريين تصير موالية للاحتلال. بالإضافة إلى قناعتهم بضرورة دراسة المجتمع الجزائري (الأهلي)، وتجميع المعطيات الميدانية العلمية والاستراتيجية حول تركيبته القبلية، وخصائصه الإثنوغرافية، والتعرّف على نمط حياة الجزائريين، وفهم أنماط تفكير وذهنيات السكّان (الأهالي)؛ بهدف غزوهم ثقافيًا.

– تجسّد التعاون بين العسكريين والمدنيين الفرنسيين في خضم مشروع احتلال الجزائر من خلال عدّة تمظهرات، من بينها ذلك التكامل الذي كان بين الجانب الميداني العسكري الذي قاده الضبّاط، والأبحاث العلمية والنظرية التي تولّاها المستشرقون والعلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية أو جاءوا بعدها.

– إنّ العامل الأبرز المشترك بين الإثنوغرافيا الكولونيالية والاستشراق "**العلمي**" الفرنسي في جزائر القرن 19م، هو إطلاق أحكام جزافية في حقّ المجتمع المحلّي (الأهلي)، كما هو الحال مع الجنرال "**دوماس**" حين تحدّث عن المجتمع في منطقة القبائل وطقوس الضيافة، كما مارس المستشرقون انتقائية واضحة في دراسة تاريخ الجزائر عبر العصور، والتحيّز لصالح المقاربة الاستعمارية التي تأسّست عليها منهجيتهم، وظهرت جلية في أعمالهم.

– اتّسمت الدراسات الاستشراقية وحتى الإثنوغرافية بالروح الاستعلائية التي طغت على تفكير الفرنسيين، من منطلق أنّهم تغلّبوا على الجزائريين بالقوّة، ولكونهم شعبٌ متحضّر جاء لحكم شعب متخلّف، ناهيك عن الروح العنصرية والتعصّب الديني؛ لأنهم مسيحيين مسكوا بزمام أمور شعب مسلم، كان لا بدّ من إعادته إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية المسيحية، وهو ما ظهر جليًّا في أعمال "**دوماس**" و"**بيربروجر**" طيلة ما يربو عن الخمسة والثلاثين سنة في الجزائر.

– مع أنّنا لم نعثر على وثائق ودلائل قطعية تثبت العمل المشترك أو التواصل المباشر بين الجنرال "**دوماس**" والمستشرق "**بيربروجر**"، أو تبادلهما لرسائل أو نحو ذلك... لكن السياق التاريخي الذي ظهر فيه الرجلان مشترك، وكذلك الأهداف كانت واحدة والغايات مشتركة، رغم الاختلاف في الخلفية المهنية والعلمية بينهما، وكذا مجال اشتغال كل واحد، إلاّ أنهما التقيا في خدمة هدف أسمى هو المشروع الكولونيالي، وتقاطعت اهتماماتهما التي لم تقتصر على الجانب العسكري بالنّسبة لـ'أوجين دوماس'، ولا على البحث التاريخي والأثري بالنسبة لـ "**أدريان بيربروجر**" ، فكلاهما انخرط في المشروع الاستيطاني بعمق، وقدّما أعمالا مُعتبرة لحكومة بلادهما في الجزائر المُستعمَرة، ولوطنهما فرنسا.

– تجلّت أوجه التشابه والتلاقي بين الرجلين فيما يتعلّق باستراتيجيتهما لتوطيد ركائز الاستيطان الفرنسي، وتسهيل مهمّة الجيش الفرنسي في الغزو والتوسّع بأيسر الأساليب، حيث وظّف الجنرال "**دوماس**" أسلوب الاستقطاب

والاحتواء، وفتح قنوات التفاوض مع الأعيان وشيوخ القبائل، لضمان استسلامها دون مقاومة، بينما كان عالم الآثار "**بيربروجر**" يجوب الجزائر لربط الصلات مع علمائها وأسرها العريقة؛ للحصول على المخطوطات الثمينة، وجمع التحف والآثار القديمة، واستكشاف المعالم الأثرية... كلّ ذلك تمّ بمساعدة من ضبّاط الجيش الفرنسي، وبرعاية ودعم مُطلق وحماية من قادته.

– تميّز المستشرق "**بيربروجر**" عن الجنرال "**دوماس**" بمنجزاته الميدانية؛ لا سيما منها تأسيسه وإدارته مكتبة ومتحف مدينة الجزائر، وإنشاء "**المجلة الإفريقية**" وغزارة كتاباته فيها، فيما قد تكون المهام العسكرية قد فرضت على "**دوماس**" الاقتصار على الكتابة والتأليف؛ مستفيدًا من منصبه كمدير للشؤون الأهلية في الجزائر، والمعطيات الميدانية التي كان يحصل عليها من مرؤوسيه.

– يشترك "**دوماس**" و"**بيربروجر**" أيضًا في رحلاتهما العديدة داخل القطر الجزائري شرقًا وغربًا، ونحو مناطق الصحراء الجزائرية، والهدف كان واحد؛ هو استكشاف الأرض والجغرافيا، ومراكمة المعلومات حولها، وهو ما أثمر في أعمالهما لصالح الاستيطان، كما ترجما كلّ هذه الجهود من خلال مؤلّفاتهما العديدة في حقل الدراسات الإثنوغرافية الكولونيالية والاستشراق.

نخلص أخيرًا إلى أنّه لولا ذلك التعاضد الذي جمع الضابط العسكري والباحث المستشرق ورجل الدّين، وأدوارهم المشتركة المتكاملة عسكرياً ومعرفيًا وتبشيريًا؛ لما كان للمشروع الاستيطاني الفرنسي أن يحقّق ما حقّقه، وأن يكون بذلك التجذّر والرّسوخ الذي كلّف الجزائر 132 سنة من الاحتلال، وبقيت آثاره بارزة إلى يومنا هذا.

قائمة المراجع

باللغة العربية

– سعد الله أبو القاسم. (1998). **تاريخ الجزائر الثقافي: 1830–1954** (المجلد 5). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

– بعلي حفناوي. (2019). **صورة الجزائر في عيون الرّحالة وكتابات الغربيين**. القاهرة، مصر: دروب للنشر.

– العربي إسماعيل. (2007). **الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي**، الجزائر: وزارة الثقافة.

– بكوش محمد الصالح. (2010). **الترجمة والمترجمون في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي 1830–1930**. قسم الترجمة. كلية الآداب واللغات. جامعة الجزائر. الجزائر.

– هلايلي حنيفي. (2005). **المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر 1830–1962**. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان، (07). الصفحات 149–158.

– هلايلي حنيفي. (2014). **المستشرقون الفرنسيون وإعادة بعث مخطوطات الجزائر وتنظيمها (1830–1962)**. المجلة التاريخية المغاربية. منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات. تونس. (155–154)، الصفحات 301–332.

– حفيان رشيد. (2019). **قراءة في مخطوط بعنوان: Mémoire sur la peste en Algérie**. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة، 33(03)، الصفحات 604–623.

– كعوان فارس. (15 جوان, 2020). **الإثنوغرافيا الكولونيالية واختراق الفضاء القبلي للشرق الجزائري من خلال أعمال بعض العسكريين الفرنسيين: شارل فيرو** نموذجًا. مجلة المعيار. كلية التاريخ والحضارة الإسلامية. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة، 24(50)، الصفحات 656–670.

- بن عربة محمد. (ديسمبر, 2022). **علماء آثار ومستشرقين بصحبة الاحتلال الفرنسي: أدريان بيربروجر أنموذجا (1832-1869)**. مجلة الحوار المتوسطي.كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجيلالي اليابس. سيدي بلعباس، 13(03)، الصفحات 44-58.
- بن واز مصطفى. (1 جانفي, 2020). **المنظور الفرنسي للصحراء الجزائرية: دوماس إيجان Eugene Daumas نموذجا**. مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية. جامعة ابن خلدون. تيارت، 3 (1)، الصفحات 249-250.
- بوعزيز وحيد. (2013). **بنية الاستشراق الفرنسي والمقاومة الجزائرية:** نموذج أوجين دوماس. مجلة الموروث. كلية الأدب العربي والفنون- جامعة عبد الحميد ابن باديس. مستغانم، (02)، الصفحات 269-281.
- بوطقوقة مبروك. (2013). الاثنوغرافيا Ethnography. تم الاسترجاع من الموقع الإلكتروني:

https://www.aranthropos.com/الاثنوغرافيا-ethnography/

- القاسم خالد ؛ الشايع مريم. (2014). الهدف العلمي للاستشراق. تم الاسترجاع من الموقع الإلكتروني:

http://estshrac.blogspot.com/2014/12/blog-post_48.html

باللغات الأجنبية

- Berbrugger, A. (1843). **Négociations entre monseigneur l'évèque d'Alger et Abdelkader pour l'échange des prisonniers**. Paris: J. DELAHAYE.
- Berbrugger, A. (1853). L**a Grande Kabilie sous les romains**. Paris, France: C.B. Duries; A. Senlis.
- Chesworth, J., & Chachoua, K. (2021). F**rench officials in Algeria**, French ethnographical reports about muslims brotherhoods in Algeria (1845-1897). Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History, 18, p. 961.
- Chronique. (1869, septembre). **Le Tombeau d'Adrien** Berbrugger. Revue Africaine, 13 (77).
- Daumas, E. (1853). **Mœurs et coutumes de l'Algérie : Tell, Kabylie, Sahara**. Paris: Librairie L. Hachette et Cie.
- Daumas, E. (1912). **La femme arabe**. Revue africaine, 56(284).
- Daumas, E. (1958). **La civilité puérile et honnete chez les arabes.** Revue Africaine, 2(08), pp. 157-176.
- E.Daumas, & Fabar, M. (1847). **La grande Kabylie : études historiques,** . Paris: L. Hachette.
- Faucon, N. (1889). **Le livre d'or de l'Algérie**, T.1er : biographies 1830-1889. Paris: Challamel et Cie Editeurs.
- Messaoudi, A. (2015). **Les arabisants et la france coloniale**. France: ENS éditions.
- Rinn, L. (1884). **Marabouts et Khouans: Etude sur l'islam en Algérie.** alger: Adolphe-Jordan Librairie.
- Rinn, L. (1905). **La femme bèrbère dans l'ethnologie et l'histoire de l'Algérie**. Dans Bulettin de la societe de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord.
- memoire afrique du nord. (s.d.). Récupéré sur - http://www.memoireafriquedunord.net/biog/biog15_Berbrugger.htm